ما بعد الترجمة

أ.د.مصطفى لبيب عبد الغنى

كليةالآداب – جامعة القاهرة

تُعَدُّ الترجمة الرشيدة، والتى هى جسر بين ثقافتين، حدثا إنسانيا رفيعَ الشأن؛ فنقلُ النصِّ القيمِّ، بشروط النقل السليم، إنما يؤثر فى ثقافة أهل اللغة المنقول إليها، سواءٌ على مستوى بِنْيَة الثقافة ذاتها أو على مستوى التعبير وارتقاء الأساليب وزيادة المفردات، فضلا عن أنه من شأن التواصل للنقل السليم أنْ يُثْمِرَ رحابةً فى الرؤية وغِنىً فى الفهم وتزكيةً لروح النقدِ وثَراءً فى المعرفة مع ما يصاحب ذلك من جهود معجمية متخصصة ومن دراسات مقارنة عديدة ومن توثيق ضرورى للنصوص؛ فيتَمُّ بذلك الاقتراب حثيثا من "المشترك الثقافى" فى وَحدةٍ تُؤلِّفُ بين العقول والأفئدة.

بَيْد أن فعل الترجمة ذاته غالبا ما يؤدى إلى نتائج بالغة الأثر فى ثقافة أهل اللغتين معا : اللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها معا؛ فلا تظهر الترجمة ذات بُعْدٍ واحدٍ بل قد يكون لها تجلياتها فى اللغة المنقول منها كذلك، فثمت دَيْنٌ سرعان ما يتَمُّ الوفاء به لحساب النص الأصلى. وشواهد التاريخ الثقافى حافلةٌ بالأمثلة المؤيدة لذلك : إذْ سرعان ما يخضع النص المنقول لقراءات متعدِّدة عند أصحابه الجُددِ الذين قد يعيدون إنتاجَه بما يجعل له حياةً متجدِّدةً فى التاريخ، كما تتفاوت أيضاً حظوظ النصوص المنقولة بتفاوت الاهتمامات الثقافية المتجدِّدة على الدوام؛ فلا تظل للنص المعين نفس القيمة المحورية أو نفس الشهرة والذيوع على نحو ما كان حاصلا له من قبل أو على العكس قد يُكتب لنص ما بعد ترجمته من الشهرة والذيوع ما لم يكن له من قبل ولنا فى ترجمة بودلير لقصص إدجار آلان بو إلى الفرنسية وترجمة فيتزجرالد لرباعيات الخيام إلى الإنجليزية مثالان واضحان على ذلك. وقد تتعدد مع الأيام زوايا الرؤية إلى طبيعة النص وقيمته وإلى تعيين ما هو جوهرى فيه. ولعل أوضح مثال على ذلك "جمهورية أفلاطون" بعد أن ترجمها توماس تيلر Thomas Taylor إلى اللغة الإنجليزية سنة 1804، وترجمها من بعده بنجامين جويت Benjamin Jowett سنة 1871 فأصبحت محور الاهتمام فى العصر الفيكتورى وعند أفلاطونيى كيمبردج من المثاليين، وعند النفعيين من أمثال "جون سيتوارت مل John Stuart Mill " ثم عند المفكرين السياسيين الإنجليز والأمريكيين فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ممن رأوا فيها تأكيدًا لقيم العدالة والمساواة وللحقوق السياسية للمرأة وتأسيس نظام سياسى قائم على التربية والعمل العام على حين رأى فيها غيرهم بعد ذلك تكريسا للنظام الشمولى وتضييعاً لقيمة الحرية الفردية، كما نجد عند كارل بوبر Karl Poper فى كتابه الشهير عن "المجتمع المفتوح وأعدائه".

و قد يُفقَد النصَّ المنقول فى بعض الأحيان عند أهله فلا يعود شيئا مذكورا يمكن الرجوع إليه عند الحاجة لَوْلا حياته الجديدة التى كُتِبت له فى لغة أخرى، وفى

ثقافة مغايرة تحتضنه وترعاه، وقد يغدو ذلك إيذانا برحلة جديدة له فى الثقافة العالمية.

فكثيرةٌ هى النصوص القيِّمة التى فُقدت فى اللغة الهندية القديمة مثلاً، أو حتى فى لغة وسيطة نُقلت إليها فى مرحلة تالية – كاللغة الفارسية – لكنها حفظت فى ترجماتها العربية وأصبح العالم من بعد يعرفها من هذه الترجمات العربية قبل سواها (ولَعلَّ من أوضح الأمثلة فى هذا الشأن كتاب السِدْهانتا Siddhanta المعروف فى ترجمته العربية "بالسِنْدهِنْد" والذى نقله إلى العربية إبراهيم بن حبيب الفزارى فى أواخر القرن الثامن الميلادى – بتكليف من الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، وكتاب بانكاتنترا Panaktantra الهندى الأصل الذى كتبه الفيلسوف "بَيْديا" والذى كان قد أحضره إلى فارس بَرْزيه طبيب كسرى أنوشروان ثم نقله عبد الله بن المقفع من البِهلوية التى كان قد نقل إليها إلى اللغة العربية بعنوان "كليلة ودِمنة". ونذكر هنا أيضاً كتاب "خُداى نامه" المفقود أصله الفارسى والذى نقله عبدالله بن المقفع إلى العربية بعنوان "سير ملوك العجم" . أما النصوص اليونانية الكلاسيكية أو الهيلنسيتية التى فُقِدت بتمامها أو فقدت أجزاءٌ منها فهى أكثر من أن تُحصْىَ. ولولا الترجمات العربيةَ التى تمَّت فى العصر العباسى لهذه النصوص لغَاب عنا الكثير من ذخائر التراث العالمى ولما صَحَّت صورتنا الآن عن الإنجاز العقلى لأمثال جالينوس والإسكندر الأفروديسى وبطليموس كلوديوس وپاپوس وبُرُقلُس وغيرهم من الأعلام المؤسِسين الذين فقدت أصولهم.

ولمعرفة الأثرِ الفعَّالِ المترتِّبِ على فعل الترجمة فى صيانة التراث العالمى من ناحية وفى إكساب النص الأصلى حيوات متجددة مِن بعد من ناحية أخرى نكتفى هنا بذكر الرواية الفلسفية "سَلاَمان وأَبسال" وهى عبارة عن نص هيلنستى (مصرى يونانى) مفقود حاليا، كان قد قامَ بنَقْله إلى اللغة العربية المترجم والطبيب العظيم حنين ابن إسحق العَبَّادى (ت : 877م)، وأصبح لهذا النص من بعد أثره الباقى فى التعبير عن أدق مشكلات الثقافة الإسلامية، سواء فى دائرتها العربية أو دائرتها بالفارسية، على امتداد العصور. ومن الثابت أن هذا النصَّ قد تَمَّ تَمثُّله عند ابن سينا (ت : 1037م) فى رسالتيه : "حَىّ بن يقظان" و"رسالة الطير" بالعربية وفى رسالته "معراج نامه" الفارسية، ثم عند السُّهْرَوَرْدِى (ت1191م) فى رسالته "حى بن يقظان"، وكانت الذروة فى رائعة ابن طفيل الأندلسى (ت : 1186م) "حى بن يقظان" وهى التى تَمَّت معارضتها –من بعد- فى عمل فلسفى بديع للطبيب الفيلسوف علاء الدين ابن النفيس (ت : 1288م) الذى ازدهر فى مصر زمن السلطان الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون، وذلك فيما عُرِف "بالسيرة الكاملية" أو "رسالة" فاضل بن ناطق"، كما نجد الشاعر الصوفى الكبير عبد الرحمن جامى (ت : 1492م) يطالعنا برسالته الفلسفية "سَلامان وأبسال" التى كتبها بالفارسية. وكل هذه الروائع

الإسلامية أعمالٌ إبداعيَّةٌ متجدِّدة أساسها النص الهلينستى "سلامان وأبسال" بعد أن تُرجِم إلى العربية.

وجدير بالذكر أن رائعة ابن طفيل الأندلسى قد ترجمها موسى الأرجونى إلى العبرية سنة 1341، ثم ترجمها بوكوك E.Pococke إلى اللاتينية سنة 1761م بعنوان "الفيلسوف المُعلِّم نفسَه" Philosophus autodidactus ، ومن الترجمة اللاتينية نُقلت بعد ذلك إلى الإسبانية وإلى الفرنسية وإلى الإنجليزية، فكانت فاتحةً لأعمال أوربيَّة عديدة لعل من أشهرها رواية "روبنصن كروزو" Robinson Crusoe التى كتبها الأديب الإنجليزى "دانيال ديفو" Daniel Defoe سنة 1719.

ومن اللافت للنظر كذلك أَنَّ ثَّمت نصوصا عربية هامة كثيرة لعلماء وفلاسفة فُقِد أصلها العربى وهى لا توجد حاليا إلاَّ فى ترجمات عبريَّة أو قشتالية أو لاتينية بعد أن نَقل الأوربيون ذخائر تراثنا الإسلامى بَدءًا من القرن الثالث عشر الميلادى وحتى عصر النهضة الأوروبية. ونكتفى هنا – على سبيل المثال - بالإشارة إلى كتابين لابن رشد الفيلسوف (ت: 1198م) هما : "كتاب جوهر الفلك" الذى لا توجد له الآن إلا ترجمة لاتينية عنوانها : De Substantia Orbis، وكتاب "الشرح الكبير لكتاب النفس لأرسطو" والذى أعاد نقله من اللاتينية إلى العربية سنة 1997 الأستاذ إبراهيم الغربى، وصدر عن "بيت الحِكمة" فى تونس.

وثمت ظاهرة أخرى اقترنت بترجمة النصوص السريانية واليونانية فى العصر الوسيط وكان لها خطرها فى توجيه الفكر الإسلامى حينا من الدهر، ألا وهى ظاهرة الانتحال إذْ نُسبت أعمالٌ بعينها إلى غير أصحابها الأصليين ضمانا لذيوعها أو بدافع من كسب أو إشباع لهوى أو متابعة لتقاليد فى ثقافة سابقة مما ترتب عليه فى النهاية أن استحدثت صورة تاريخية خاصة لبعض المذاهب والأفكار تخالف قليلا أو كثيرا صورتها الحقيقية عند أصحابها، ولعل من أوضح أمثلة الانتحال هذه ترجمة كتاب "أثولوجيا" الذى نقله عبد المسيح بن ناعمة الحمصى من اللغة السريانية إلى العربية بأمر الخليفة المعتصم بالله، وأصلحه أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى، والكتاب فى حقيقته ليس إلاّ مقتبسات من تاسوعات أفلوطين. وقد أدى الاعتقاد فى صحة نسبته إلى أرسطو إلى تصور وحدة كاملة عند فلاسفة العرب – كانت موهومة فى أساسها – بين تعاليم الأفلاطونية وتعاليم الأرسطية على ما بينهما من تباين كبير، ولم يكن غريبا أن نجد أبا نصر الفارابى الفيلسوف يؤلف رسالة عنوانها "الجمع بين رأيَيْ الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطوطاليس" – وهو الأمر الذى كشف عنه "ديتريصى" الألمانى عندما حقق النص عن مخطوطات عربية مع ترجمته إلى الألمانية فى ليبزج سنة 1882. ونذكر أيضا "كتاب النبات" لأرسطو بتفسير نيقولاوس الدمشقى (الذى ازدهر بين 37 وسنة 4 ق.م.) والذى نقله إسحاق بن حنين وأصلحه من بعد ثابت بن قُرة الحرّانى، وكذلك الكتاب المنسوب إلى أرسطو والذى

نقله أبو زكريا يحيى بن البطريق والمعروف بكتاب "سر الأسرار"، وهو من أغرب كتب العصور الوسطى التى تشتمل على مزيج من القصص عن عادات الشعوب وخوارق الأوهام وعلى حشد من قواعد تدبير الصحة وملاحظات تتعلق بوظائف الأعضاء.

ولعل ما تحقق لنا من نجاح هائل فى توثيق المعلومات وحفظها وسهولة استرجاعها بالتقنيات الحديثة كفيلٌ بتجاوز الوقوع فى شَرك أى انتحال أو تحريف مهما تعددت صوره أو بواعثه.